وطن الأسى والقنوط

بقلم: سليم الحص

أكتب هذه السطور وبيروت، كما سائر المدن اللبنانية، مقفلة وشوارعها تغص بالمواكب السيارة في الذكرى الثالثة لاستشهاد رجل كبير هو الرئيس رفيق الحريري، كما تغص ضاحية بيروت الجنوبية ومعها مناطق واسعة من لبنان بحشود خرجت لتشييع قائد فذ من قادة المقاومة التاريخيين هو الشهيد عماد مغنية.

هذا يوم من أيام السنة، ومثله أيام وأيام. فالرئيس الحريري لم يكن أول أو آخر المستشهدين غيلة، ولا كان المقاوم المقدام عماد مغنية أول أو آخر مقاوم يستشهد غدراً على يد إسرائيلية جانية.

كان من شهداء لبنان الأبرار الرئيس رشيد كرامي وكان عشرات آخرون من أكرم الوجوه الوطنية، وكان منهم رموز دينية. ولكن استشهاد الرئيس رفيق الحريري كان له وقع الزلزال داخلياً وخارجياً كما لم يكن لأي من جرائم الاغتيال الأخرى التي سبقته أو أعقبته. فما شهدنا إحياء لذكرى أولى أو ثانية أو ثالثة لغياب أي من هؤلاء كما كان لغياب الرئيس الحريري. وما كان تحقيق دولي أو محكمة دولية في غير فاجعة اغتيال الرئيس الحريري. هذه حقيقة لافتة نترك تحليلها للتاريخ. فوسط الانفعالات التي تعتمل في النفوس لا مكان لتحليل موضوعي مجرد من دون استثارة حساسيات ومزيد من الانفعالات هنا أو هناك. هذا مع الإقرار أن الرئيس الحريري شكل ظاهرة فريدة في الحياة السياسية في لبنان بلا أدنى ريب ومن أكثر من زاوية.

يوم الذكرى الأليمة هذه صادف يوم تشييع بطل مقدام من أبطال المقاومة كان ظاهرة في كونه سجل ما سجل من مآثر نادرة على صعيد مقاومة العدو الصهيوني على أرض لبنان وفي شتى أرجاء المعمورة، ثم اختار أن لا يعيش أمجاده فلاذ إلى عالم التخفي والنسيان، فما كانت له إطلالة إعلامية ولا كانت له أي محاولة للتباهي بأنجاز حققه، لا بل كادت أن لا تكون له صورة تعرف الناس بوجهه. كأنما شاء أن تكون أعماله لا لمجد كان يطلبه لنفسه بل لوجه الله والوطن والقيم التي كان يؤمن بها.

نقول إن هذا اليوم هو يوم حزن وأسى، ولكنه ليس اليوم الأول أو الأخير. وهو ليس قاصراً على لبنان، فأيام الأسى لا بل والقنوط تملأ حياة الوطن العربي بأسره. فلنذكر ما يدور من مآس وفواجع يومياً في فلسطين والعراق والسودان والصومال، والمأساة الحقيقية هي في تعرض الجسم العربي لكل هذه الآلام من دون أن يكون هناك موقف عربي يعبر عن هذه الآلام ويفتح نافذة لإنهاء هذه الحالة أو الحؤول دون استمرارها أو تفاقمها.

أين هو الصوت العربي المدوي؟ أين هي الصرخة العربية التي توقظ الضمير العالمي وتحمل دول القرار التي تتحكم بمسار العالم ومصيره تبعات ما يقع على الساحة العربية من جرائم بعلمها أو إغضائها أو تدبيرها أو حتى بفعلها المباشر. لا شيء من ذلك على الصعيد العربي. بل نسمع خلافه.

ففي الوقت الذي نتابع فيه وقائع الذكرى الأليمة في جانب ووقائع التشييع في جانب آخر نقرأ خبراً يفيد أن رئيس وزراء الكيان الصهيوني أولمرت قام بزيارة ألمانيا وحصل منها على تعهد بتسهيل استقدام نحو مئة ألف يهودي ألماني إلى فلسطين وكأن فلسطين أرض بلا ناس، ونقرأ حديثاً لمسؤول عربي خليجي يقول فيه إنه في حال تمكنت إيران من تطوير سلاح نووي فإن الرهان معقود على إقامة مظلة نووية واقية فوق الخليج من جانب أميركا وإسرائيل، أجل إسرائيل. هكذا، ما كان في منزلة الكفر والهرطقة بات في حكم الكلام المباح الذي لا يستثير ولا حتى ردة فعل أو كلمة احتجاج أو رفض.

كما على الصعيد العربي كذلك في لبنان. فبعض الشارع الذي كان يجسد الالتزام المطلق لقضية الوحدة الوطنية داخلياً ولقضية التحرر والوحدة على المستوى القومي، ذلك الشارع الذي كان يكنى بشارع عبد الناصر، بتنا نسمع في بعض زواياه كلاماً مارقاً يساوي بين سوريا وإسرائيل، لا بل إن بعضه يوحي بإيثار العدو على الشقيق والعياذ بالله. وكان من آيات هذا الواقع المرير انقلاب في المقاييس: فبعد أن كنا لسنوات طويلة نتهم إسرائيل بافتعال أي مكروه يصيبنا، باعتبارها العدو الذي يتربص بنا شراً، فإذا بنا اليوم نتهم سوريا بأية جريمة تقع على أرضنا بعد لحظات من وقوعها، حتى قبل مباشرة التحقيق في ظروفها، ولا يخطر ببال المارقين أن إسرائيل يمكن أن تكون مسؤولة وهي التي لها مصلحة بالتخريب على لبنان خصوصاً في وجه المقاومة التي سجلت على الكيان الصهيوني انتصاراً في حرب صيف عام ٢٠٠٦ باعتراف العدو نفسه. والمارقون في بلدنا لا يدركون، أو لا يريدون أن يدركوا، أنهم في ما يفعلون إنما يشجعون إسرائيل على تصعيد اعتداءاتها على لبنان واللبنانيين، وذلك من حيث أن العدو الصهيوني بات قادراً على ارتكاب ما يشاء من جرائم في لبنان وهو مطمئن أنه لن يتهم بأي منها، فسوريا هي التي سوف تتهم. هكذا بلغنا منزلة المجرم في حق نفسه.

ولبنان يعيش أزمة وطنية خطيرة، تتجلى في فراغ سدة الرئاسة، وكلنا يشعر أن هذه الأزمة لن تنتهي ما دام هناك خلاف بين الحكمين في سوريا والمملكة العربية السعودية. وثمة شعور عام أن لبنان أضحى بمثابة المسرح لحرب باردة بين الشقيقين العربيين. فهل يجوز أن يصبح المصير الوطني اللبناني في مهب الريح على مذبح صراع غير مبرر بين شقيقين عربيين؟ علام هذا التنابذ العبثي وإلام؟

هل نغالي والحال هذه إذا ما قلنا إن لبنان بات وطن الحزن والأسى والقنوط؟ وهل نجانب الحقيقة إذا قلنا إن هذا الوصف لا ينطبق على لبنان حصراً، بل يجوز إطلاقه على الساحة العربية برمتها، على الوطن العربي بشتى مكوناته؟

متى تكون اليقظة وكيف؟